تفسير وتدبر سورة العنكبوت

مقدمة

سورة عظيمة تمثل الواقع الذي نعيشه ويعيشه إخواننا في بقاع الأرض، فهي تمثل المكائد حولنا بشبكة العنكبوت، وتعتبر الإعجاز التغييري في حياة المسلم، يقرؤها المؤمن المبتلى فتوطن في قلبه الإيمان، وتحثه على الصبر والمجاهدة، والإرتباط بكتاب الله فيزداد صبر وثبات ويقين بأن الله معه، لذا حصل بعدها الهجرة للمدينة بقدم ثابته، بدون خوف على مال ولا ولد ولا أهل ولانفس، المهم رفعة الدين وعلوه.

فدائمًا هناك قاعدة: أن القرآن يأتي في أوقات الاستضعاف؛ ليطمئنك على الدين، وليس على نفسك.

فأنت ستموت، ولكن لو كنت تعمل للدين فأنت ستموت وأنت مطمئن؛ أن هذا الدين باقٍ، لأن هذه هي قضيتك، كمثل أب -مثلًا- يموت، ويقول: أنا سأموت وأنا مرتاح ومطمئن؛ لأنه يشعر أنه أدى الدور الذي عليه، ربى أولاده، وعلمهم، وتزوجوا.

لذا النبي لما نزلت عليه {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}[النصر:2] كان هذا نعيه؛ لأنه أدى المطلوب منه.

لذا لابد أن يكون هدفك هو نصر دين الله، وإن سقط من سقط، {والله خير وأبقى}؛ فالبعض يترك الطريق، ويقول: الرموز سقطت، ولا يوجد من يكمل الطريق، فما الذي جعلك أنت لا تكمل الطريق؟، ولاتظن أن الله يتركك أبدًا.

*تمثل سورة العنكبوت الوحدانية والرسالة والبعث والنشور فالمؤمن في حال اختبار في الدنيا على الشدائد، فلايحسبوا أن الله يبتليهم، وأن الإيمان يحميهم من الإبتلاء.

وهي السورة المكية الوحيدة التي ورد فيها كلمة نفاق، بسبب شدة البلاء الذي كان على الصحابة، فهي حصن حصين للمستقيم في بداية الطريق، وللداعية، ولطالب العلم، وللمربي.

المبحث الأول: التعريف بالسورة.

سبب تسمية السورة بهذا الإسم

لذكر اسم العنكبوت فيها، قال الله -تعالى-: **(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)** فشبّه الله تعالى الكافرين الذين يصنعون الأصنام بأيديهم ويتخذونها آلهة لهم من دون الله -تعالى-، بالعنكبوت الذي يتّخذ ويصنع لنفسه بيتاً ضعيفاً ليحميه من الرياح والحشرات ثم يكتشف انه واه.

فضرب الله تعالى لنا هذا المثل ليدلنا على أن الفتن في هذه الحياة متعددة ومتشابكة كما تتشابك وتتعدد خيوط العنكبوت التي ينسجها لكن إذا استعان العبد بالله فإن هذه الفتن كلها تصبح واهية كبيت العنكبوت تماماً، المهم الإستعانه بالله.

محور السورة

محور السورة يتحدث عن الإبتلاءات والشدائد والمحن التي تكون كشبكة العنكبوت، تفتن العباد، وتوقعهم في شباكها، وتحققنهم بسمومها والذي يثبت في هذه المحن هو الإيمان، فالسورة تبين أن الإيمان ليس مجرد كلمه تقال باللسان، بل هو يمحص الإنسان، ويبين معدنه، فمن ابتلي وواجه الإبتلاء بالصبر، فالنصر حليفه، وهو وريث الأنبياء. وفيها أن الله يعلم الناس بأن كل مراحل الحياة بها فتن، كفتنة تكاليف الإيمان وما يتطلبه من جهد وتضحيات وفتنة المال والبنين والدنيا والسلطة والشهوات والصحة والأهل، فيختبر الله سبحانه إيمانك، لأن رب العالمين يغار أن يتعلق قلبك بغيره.

سبب نزولها

هي سورة مكية، نزلت في أواخر المرحلة المكية بعد سورة الروم، وقيل آخر سورة نزلت بمكة قبل الهجرة، وعندما تكون السورة التي تتكلم عن الفتن آخر ما نزل بمكة، فهذا دليل أن الفتن بقيت الى آخر لحظة، وكانت أقسى فترة على المؤمنين لذا نزلت السورة لتثبيتهم، ومواساتهم.

وهناك قول أنها نزلت في الطريق من مكة الى المدينة:

قال الشعبي نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - من المدينة: أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فاتبعهم المشركون، فآذوهم . فنزلت فيهم هذه الآية{ الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝}. وكتبوا إليهم: أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا، فقالوا : نخرج، فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون ، فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله تعالى فيهم : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ) الآية

وهذا يدل على أن الله أمر نبيه لا يترك أي مسلم خلفه، فلابد أن يتفقدهم، وأعطتهم مهلة سنة كاملة للهجرة للمدينة، فالمؤمنون لُحمة واحدة: "فتزل قدم بعد ثبوتها.

المبحث الثاني: الترابط الموضوعي والمقاصد والتدبر

بدأت بمقدمة أن الأصل في الدنيا الإبتلاء والإختباروتبين حال نوعين من الناس:

الأول: انسان مؤمن لكن عنده ضعف؛ وتجيب على تساؤلات منها أنا مؤمن لمَ أبتلى؟، وهل هذا دليل على أني على الطريق الخطأ؟، فبين الله لهم الجواب من حال النبي وصحابته، وكذلك الأمم السابقة.

الثاني: مذنب يعمل السيئات ويظن أنه لن يعاقب،

الترابط الموضوعي

ثم ذكرت الفتن الخارجية الفتن التي تتعرض لها من المجتمع حوله، فبدأ بفتنة الأهل {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} فأول طريق الاستقامه تحصل فتن من الأهل والأقارب، واتهام بالتخلف والرجعية، ثم الكلام عن فتنة الإيذاء { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} كالأذى من الأمن، ثم فتنة الصحبة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ} فهؤلاء أصدقاء السوء يريدون أن يجروك للباطل

ثم ذكرت الفتن الداخلية في قلب الانسان "رزق، محبوبات دنيوية، أمن" أهم ثلاث أمور يطلبها العبد؛ فتذكر فتن الرزق {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} فقد يكون على الإستقامه وعنده ضيق في الرزق، وفتن المحبوبات الدنيوية {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ}، وفتنة عدم تحقيق التوحيد في القلب { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}، وفتن الأمن من مكر الله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}، وتختم السورة بقوله {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} وفيه بيان جزاء الذين صبروا أمام المحن وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء صامدين ثابتين

ثم قصص الأنبياء: لتكون أنموذج للثبات أمام فتن رهيبة شديدة فتقتضي بهم: بدأ بقصة نوح وابراهيم ولوط وشعيب وفيها الفتن التي تعرض لها الأنبياء وكيف تعامل معها الأنبياء، وفي هذه القصص كلها دروس من المحن والابتلاء تتمثل في ضخامة الجهد الذي يبذله الأنبياء وضآلة الحصيلة. فما آمن مع نوح إلا قليل. وكذلك لوط وغيرهم عليهم السلام . وتحدثت الآيات عن بعض من طغوا وتكبروا في الأرض ، كعاد وثمود وقارون وهامان مع ذكر ما حلّ بهم من الهلاك والدمار

الإبتلاء الأول: الأصل في الدنيا الإختبار، والإبتلاء.

"من الآية 1 الى الآية 7"

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2)
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ
(6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

"تفسير، وترابط الآيات"

ابتدأت الآيات بالحروف المقطعة التي تنبه عن الإعجاز القرءاني، الإشارةُ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ الذي أعْجَزكم معْشرَ العربِ وأعْجزَ غيرَكُم لم يأتِ بحروفٍ جَديدَةٍ لا تَعرِفونها، وإنما أَتَى بحروفٍ تَعرِفونها وتُركِّبونَ منها كَلامَكم، ومع ذلك أعْجَزَكم. ولهذا السور المَبْدوءة بالحروفِ الهِجائيَّةِ يأتي بعدها ذِكْرَ القُرآنِ أو ما هو مِنْ خصائصِ القُرآنِ.

ثم بالإستفهام الإنكاري "أَحَسِبَ النَّاسُ" "أحسب تأتي للظن الخاطيء" هذه الآية تسليه للمؤمنين في مكة الذين كانوا يعذبون من قبل المشركين، فأنزل الله هذه الآية تسلية لهم حتى لايظنوا أن الإيمان يصرف عنهم العذاب، والمحن، ولايأتيهم أي ابتلاءات واختبارات تنغص حياتهم، وتكدرها، فتنقيهم وتميز المؤمن من الكافر كما تنقي النار الذهب.

{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)}
بمَعنَى: اخْتَبرنَا الذين من قَبْلِهم، وقد أخبَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن ذلك بقولِهِ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ"، يعني: يُؤتَى بأمشَاطِ الحديدِ ويُفصَلُ بها اللَّحمُ ويمشَّطُ، ومع ذلك كله يصْبِرُ على دِينهِ ويحْتَسبُ ولا يَرْتدُّ، فإذا كان هذا فيمن كان قَبْلنا فإن هذه

الأَمَّةَ أَوْلى بالصَّبر على هذا الأمرِ العَظيمِ، لا سِيَّما إذا كان المقامُ مقامَ جهادٍ،
ثم أبان الله لهم أنه لو لم يكن ابتلاء، لما حصل التمييز، لذا الحكمة من الإبتلاء {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} ولكن سنته ﷻ في عباده المؤمنين بأنه اختبرهم بالشبهات والشهوات؛ فابتلوا بالشبهات كالقول بعدم وجود إله فصبروا وثبتوا على الإيمان لم يتزلزل، ومن ابتلي بالشهوات كالمعاصي من شرب خمر، نظر لمتبرجات وغيرها، فجاهد شهوته، وصدق إيمانه، لذا عليكم أنتم الصبر أيضًا ليميز الله الصادق من الكاذب.
فمَنْ كانَ صادِقًا في إيمانِهِ فإنه يَسْلَمُ بذلك، ويكون البلاء نعمه، ومن كانَ كاذبًا فإنه -والعياذُ باللَّه- يَنْخدِعُ بهذه الفِتنَةِ، وينقَلِبُ على وجهِهِ، ويخسِرُ الدُّنيا والآخِرة، ويكون البلاء نقمه في حاله.
(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)
وهذا اضراب انتقالي، بعدما ذكر الله حال الذين يظنون أن إيمانهم سينجيهم من الفتن، انتقل الى الكلام عن صنف آخر وهم الذِينَ هم يَعْملونَ السيِّئاتِ، ويَظُنُّون أن اللَّه تعالى لن يُحيطَ بهم.
أم هنا منفصله بمعنى بل: أي بل أحسب الذين همهم فعل السيئات وعبر بالفعل المضارع يعملون لتدل على الإستمرار، ويرتكبون الجنايات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، ولن ينتقم منهم، لذلك سهلت عليهم المعصية، هؤلاء حكمهم جائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وسوء ظن بالله، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.
{ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5)
ثم بينت الآيات الطريق الصحيح للمحب لربه، بمَن كان يرجو أي يُؤمِّل ويشتاق للقاء الله، وقربه، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، فالأملَ مبنيٌّ على المحبَّةِ، والمسارعة في رضاه، لأن ما كل من يَدَّعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، كما في قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]،
فإن الله سميع للأصوات، والأقوال سمع إجابة للدعاء، والسؤال، وسمع ادراك وعلم واحاطة، وسمع تأييد ونصرة.
عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح.
{وَمَنْ جَاهَدَ} نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر، {فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، وعلل بذلك أن الله غني عن العالمين، لايحتاج اليهم فلاتنفعه

طاعة الطائعين، ولاتضره معصية العاصين.
قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يومًا من الدهر بسيف.
{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} يعني أن الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، الذي يتضمن الإخلاص لله، والمتابعة لشرعه، { لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} التَّكْفِيرُ مأخوذٌ مِنَ التَّغْطِيَةِ، وتغْطِيةُ السَّيئاتِ معنَاهَا: إزَالتُهَا وعَدَمُ المؤاخذَةِ عليها، لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن الإيمان يجب ما قبله، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "الصَّلَواتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَينهنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ"، وقال النبي: "أسلمت على ما سلف من خير"، ثم ذكر الجزاء والمكافأة على الأعمال، فقال: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} فهذا الجزَاءُ أحسنُ وأعظم جزاءٍ؛ وذلك أن تكونَ الحسنةُ بعَشْرَةِ أمثالها إلى سَبعِمِائةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

تدبر ... وعمل

الإيمان لايعصمك من الإبتلاء، بل يبتلى المرء على قدر دينه.
هذه الآيات نزلت على الصحابة وهم في قمة الضعف، والهوان، بعد اثني عشر عام من العذاب، بعد حصار شعب أبي طالب، وموت أبوطالب وخديجة، وذهب النبي للطائف ورفضوه، فلعل يأتي تساؤلات من الصحابة لمَ لايأتي النصر، فنحن مؤمنون، وهذا حصل من خباب بن الأرت قال: "شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتّى يَسِيرَ الرّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ".
فنزلت الآيات تبين أمر عظيم، لمن يظن أن الإيمان يمنعه من الإبتلاء، أن طريق الإستقامة يعصمه من الإبتلاء، فيقول الله لهم هل تحسب أن إيمانك كافيًا؟ لذا قال أحسب الناس ولم يقل المؤمنون، ليبين أنك لن يثبت لك وصف الإيمان الا بعد أن تختبر.

فبين الله أن مهما أصابك الإبتلاء والإختبار كالفتنة بالأقدار كتسليط الكفار لهم، والإبتلاء أو الفتنة بالتكاليف كالهجرة والجهاد، أو اتباع العقيدة السليمة البعيدة عن البدع، فهذا لأن الله يريد أن يرى ايمانك وصلابتك وقت الشدة، وكذلك يريد الله منك أن تتقرب منه، وتطلب منه الفرج، والمعونه، والثبات، فعليك أيها المؤمن المجاهد الصابر ألا تلين أمام الأحداث القوية، فلاتظن أن إيمانك سيصرف عنك البلاء إنما يبتلى المؤمن على قدر دينه، عن سعد بن أبي وقاص قال النبي: {أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسبِ (وفي روايةٍ: قدْرِ) دِينِه، فإن كان دِينُه صلبًا اشتدَّ بلاؤُه، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ، ابتُلِيَ على حسبِ دِينِه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركُه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ) ، وهذا طبيعي بالنسبة لأهل الإستقامة طالما أن العبد أتى بالتغيير فسيواجه نوع مصادمة، لذا قال ورقة للنبي: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، لذلك قال تعالى: { أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل:56]؛ فكأن هذه سنة.

ومن النَّاسِ أيضًا من يُؤْذَى بتحلِّيهِ بأخلاقِ المؤمِنينَ، كارتداء الحجاب، وإعفاءِ اللِّحيَةِ مثلًا، فيؤذَى بذلكَ إما بالقَولِ والاستهزاءِ والاسْتِخفافِ، وإما بالفعل فيُضْربُ عليها أو يُحْبس، فإذا كان دينه ضعيف يحلِقُ لحْيَته خوفًا وهذا لا يجوزُ؛ لأن الواجِبَ أن يَصْبِرَ، فلا يجوزُ أن تَفْعلَ المعْصِيةَ خَوْفًا مِنَ الناسِ، بل يجبُ أن يَصْبرَ ويحتَسِبَ، قاعِدَةُ (المشَقَّةُ تجلِبُ التَّيسِيرَ) لا تُطبَّقُ هنا.

والفتنة أصلها الوضع في النار، كالذهب اذا وضع في النار تسقط منه الشوائب فينقى ويظهر الذهب الأصلي فقط، فلابد أن تدخل فرن الإبتلاءات، ولايخرج منها إلا الثلة الثابته، والباقي يتحول ويتغير، وكل ما غيرته النار فهو مفتون، لذا قال حذيفة: "الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حرامًا"، لكن ليس عن اجتهاد شرعي، بل نتيجة ضغوط وظروف معينة؛ فعلينا أن نحافظ على هذا الدعاء: "اللهم استعملنا ولاتسبدلنا".

مثل ما وقَعَ للإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ في أيامِ المِحْنَةِ، فإنه كان يُضربُ بالسِّياط ويُجَرُّ بالبِغالِ، ليقول: إن القرآنَ مخلوقٌ، ومع ذلك أبَى أن يقول: إن القرآن مخلوقٌ؛ لأنه لو قال: إن القرآنَ مخلوقٌ سيَتَرتَّبُ على ذلك فسادُ الأمَّةِ كلِّها، فليست المسألةُ متَعَلِّقة به وحده.

لأن المقامَ في حَقِّهِ مقامُ جهادٍ، وليس متوقف عليه وحده، بل فيه فساد أمة، أما إذا كانتِ المسألةُ إكْراهًا شخصيًا على الكُفرِ، ولايتعلق برقبته غيره، فإن هذا يجوزُ بشرطِ أن يكونَ قلبُه مُطمئنًا بالإيمانِ.

وعلى طرفي النقيض بعض ضعاف الإيمان والعقول يقولون أنا لن أقول آمنت حتى

لا أبتلى، وغفل الدنيا ابتلاء، سواء مؤمن أو كافر، بر أو فاجر، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد:4] {إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ} [آل عمران:104]، في كل الأحوال ستتعب، فلا يوجد أحد مستريح، لكن كونك ترجو من الله ما لا يرجون، فهذا يهون عليك ذلك.
ثم بين الله السبب من الإبتلاء والإختبار، فقال الله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} فهذا سنة الله في الأولين، كما في آية سورة آل عمران التي يقول فيها الحق تبارك وتعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتل مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا}، تخاطب الآية هؤلاء الذين تركوا سلاحهم في غزوة أحد تقول: لماذا تركتم القتال عندما سمعتم إشاعة موت النبي صلى الله عليه وسلم؟ فهناك من كان يجاهد مع الأنبياء، ثم قُتل النبي حقيقة وليس إشاعة، وأكملوا سيرهم فما وهنوا لقتل نبيهم، وإخوانهم واستمروا في القتال. لذلك قال تعالى: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب:23]، بمعنى أنه عندما أتى البلاء كان صادقًا فيما قاله في البداية؛ لذلك عندما قال أنس بن النضر لما لم يكن في غزوة بدر: "لَإِن أشهدني الله مع رسول الله مشهدًا آخر ليرين الله ما أصنع" وكان صادقًا فيما قال؛ فقاتل وقتل، وما عرفه من كثرة الجراح، إلا أخته ببنانه، وهناك أناس فروا. وأكبر إشكال هو أن يحدث تلاقي بين الأماني والواقع، فتحدث فجوة ويصطدم الإنسان، والصادق هو من يستمر على اختياره؛ أنا اخترت الإيمان، سأكمل عليه. ومن ذلك الزواج في أوله مشاكل وتعب، مع أن قبله كان هناك حب ورومانسية بين الطرفين وذلك لأن لأنه كان مجرد كلام بالقول.
اذًا سنة الله هي ابتلاء المؤمنين، ليجذبهم إليهم، ويقربهم منه، ويدلهم عليه، وفي الجانب الآخرين الكفار والظالمين، الذين يبتلون أهل الإيمان قال الله عنهم: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} قد يظن الكافر أنه على الحق؛ لأن معه القوة، ومعه المال {وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلادًا وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ:35]؛ فربط بين الأمرين، مع أنه ليس هناك علاقة، وهذا يحدث أحيانًا داخليًا لدى الكثير من الناس، وهو نتيجة أنهم ماديون يحبون الأموال والمادة والترف؛ فأصبحت تفسيراتهم بهذا الشكل، وقد قال الله ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿ كَلَّا ﴾ [الفجر:15-17]؛ أي: هذا الفهم خاطئ. أيوب عليه السلام، وهو نبي مكث في بلائه ثمانية عشر عامًا، قال أحد أقرب الناس إليه: "لقد أذنب أيوب ذنبًا لم يذنبه أحد من العالمين" ؛ فهو لديه ربط داخلي نفسي بين

طول البلاء وبين أنه عاصٍ؛ وبالتالي أنا لست مبتلى، فأنا غير عاصٍ.
مهما طالت فترة الظالم، ومات موتة طبيعية أمام الناس، سيعذب في قبره، ويوم القيامة؛ فالآية تخاطب المشرك وتطمئن المؤمن بأنه ليس من الضروري أن ترى عذاب المشرك في الدنيا، لكن لا بد أن يكون لديك يقين أنه لن يفلت من عذاب الله، الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء؛ يملك الزمان والمكان؛ {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} [التكوير:26]؟! لن تسبقونا، فالله سبحانه حكيم يضع الشيء في موضعه.
فالله سبحانه وتعالى لا يعجل بعجلة أحد، أما الإنسان فلأنه ضعيف فهو إن ظُلم وجاءته الفرصة لكي يأخذ حقه على الفور، يقول: سآخذ حقي الآن فلا أدري ماذا سيحدث فيما بعد؛ فالإنسان يخاف من تغيرات الأوضاع.
فمن يعجل في أخذ حقه يكون ذلك نتيجة نقص، فأحيانًا أهل الإيمان المستضعفون يستعجلون فيدعون الله أن يعجل العذاب على الظالمين قبل أن يموتوا، مثل أن يشاهد فيديو لشخص ملحد وينتظر أن تنزل صاعقة تأخذه في آخر الفيديو -وهذا من الحمية الطيبة التي تحتاج فهمًا لسنن الله-، أن الله يؤجل لهم العذاب ليزدادوا إثمًا {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} [آل عمران:178].
فهذه السور آل "الم" المكية، تصنع المجاهدة والصبر واليقين والحكمة والعبادة؛ وهذه المعاني لا بد أن تستحضرها دائمًا في وقت الاستضعاف.

ثم أتت الآية التي تهون عليك السير إلى الله، وتطمئن العبد { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} لا بد أن يكون لديك رؤية واضحة وهدف واضح؛ فبينك وبين لقاء الله جسر الموت، فتعيش من أجل لقاء الله، وتشتاق لرؤية وجهه الكريم في الجنة، فيحب الله لقائك، هذا المعنى الذي يصبر الإنسان على الإبتلاءات، لذا السحرة لما آمنوا قالوا لفرعون: {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [طه:72].
لذا في الطب النفسي حاليًا بسبب كثرة الإنتحارات، جعلوا هناك علاج اسمه logo therapy ومعناه أن تجعل لحياتك هدف ومعنى تعيش من أجله.
وفي ختام الآية قال {وهو السميع العليم}؛ السميع لأقوالكم وأنكم تريدون لقاء الله ورؤيته، فمن كان صادقًا فسيظهر ذلك على عمله
إبراهيم عليه السلام آذوه، وحصلت بينهم وبينه مناظرات طويلة جدًا، وهو على يقين بنصر الله، لذا لما تعبوا وقالوا {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء:68]، قال الله: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء:69]، لذا قال تعالى مطمئنًا كل من على نفس الطريق {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء:51].
فاعلم أن نصر الله آتٍ، ولا يشترط أن ترى النصر بعينيك؛ فأنت مطمئن أن العاقبة

للمتقين، ومطمئن على آخرتك بإذن الله سبحانه وتعالى؛ فهذا هو الذي يشغل بالك وهذا الذي يجعلك تكمل السير: أنك تنتظر المعنى الأخروي، {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت}.

الفوائد المستنبطة

فوائد فقهية:

قَاعِدَةُ (المشَقَّةُ تجلِبُ التَّيسِيرَ) تطبق هذه القاعدة في حالة إن أكْرِهت على حلق اللحية مثلًا، وغُلَّتْ يدُك وأُتِيَ بالمُوسَى وحُلِقَتْ؛ فهذا أمر ليسَ إليكَ. كما قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦]
أما في الآيات في السورة لاتطبق لأن الرَّجُل ما أُكرَه، غايةُ ما هنالك أنه سيُضْربُ أو يُحْبس، فليقلْ: لن أفْعلَ المعصيةَ، ثُمَّ إذا أردتم ضَربِي فاضْرِبونِي كما شِئتُم، فالضَّرب مشقَّةٌ تَزُول، فلْيَصْبر ولْيَحْتسِب على دِينهِ.

الفوائد العقدية

في قوله تعالى: { فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} هذه الآية قد تكون مشكلة عند البعض، الله سبحانه يعلم كل شيء، فكيف يكون العلم هنا بعد حصول الفتنة؟
أن عِلمَ اللَّه تعالى بالأشياءِ يَنقَسمُ إلى قِسْمين:
* علمٌ بأنها ستَقَعُ بالمستقبل؛ وهذا علمٌ بما لم يَكُن، وهو الذي لايترتب عليه جزاء ولاعقاب.
* وعلم بأنها وَقَعَتْ بالماضي، وهذا علمٌ بما كانَ، وهو الذي يترتب عليه الجزاء، وهذا هو الذي يُنَزّلُ عَلَيْهِ مثلُ هذه الآياتِ، مثل قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ} [محمد: ٣١]، المراد: عِلْمُ مشاهدة، أو علم المجازاة.